التقطيع الإقليمي أثناء الثورة التحريرية بين الجغرافية المتحركة والتاريخ المتوقف: الولاية الثالثة أنموذجا (1954-1962)

د. مصطفى سعداوي
جامعة أكلي محند ولحاج، البويرة- الجزائر
salisada@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/11/14 تاريخ القبول: 2019/11/26

الملخص

تحاول هذه الدراسة استنطاق البنية الاقليمية للثورة التحريرية الجزائرية ما بين 1954 و1962، مركزةً على إحدى ولاياتها التاريخية الست وهي الولاية الثالثة. ومن المعروف أن هذه البنية صاغها قادة «جبهة-جيش التحرير الوطني» لأهداف استراتيجية مرتبطة -أساسا- بالمشروع الثوري الرامي الى انهاء الاحتلال الفرنسي للبلاد. بيد أننا إذا تجاوزنا هكذا نظرة وقائعية، واجتهدنا في سبر أغوار البنية المعنية من منظور الأمد الطويل، سنخلص الى أنها -في المحصلة- تعبير عن حقائق تاريخية مكثفة، وصدى لهيكلية اجتماعية عميقة، جرى تكريسها وترسيخها عبر نقلها من المستوى التاريخي-الاجتماعي العميق والمتخفي الى المستوى السياسي-الاداري البارز والمتجلي، وذلك بعد تكييفها مع المتطلبات الاستراتيجية والمقتضيات التكتيكية للفعل الثوري.

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، البنية الاقليمية، الولاية الثالثة، التاريخ المكثف، الجغرافية المتحركة.

Abstract:

This study questions the territorial structure of the Algerian revolution between 1954 and 1962, focusing on one of its six "Willayas" as a prototype, namely the "Willaya" three. It is known that the said structure was conceived by FLN-ALN leaders from a revolutionary perspective aimed at putting an end to the (French) colonial occupation of the country. However, if we supplant such an event-driven perception by means of a deep exploration of the underside of the structure concerned and according to a long-term vision, we will certainly see that it was -in fact- only an expression of condensed historical realities, and the echo of deep social structuring. This is after having transferred these so-called realities of the deep and invisible historico-social level to at the apparent and observable político-administrative level after an adaptation to the strategic requirements and tactical needs of the revolutionary action.

Keywords: Algerian Revolution, Territorial Structure, Wilaya Three, Condensed History, Moving Geography.

Résumé

Cet étude interroge la structure territoriale de la révolution Algérienne entre 1954 et 1962, en se centrant sur l'une de ses six Willayas comme prototype, à savoir la Willaya trois. Il est connu que ladite structure était conçue par les chefs du FLN-ALN dans une perspective révolutionnaire visant à mettre fin à l'occupation coloniale (française) du pays. Toutefois, si on supplante une telle perception événementielle à la faveur d'une exploration profonde des dessous de la structure concernée et selon une vision de longue durée, on constatera certes quelle n'était-en somme- qu'une expression de réalités historiques condensées et l'écho d'une structuration sociale profonde. Cela, après avoir transférer les dites réalités du niveau historico-social profond et invisible au niveau politico-administratif apparent et observable, suite à leurs adaptation aux exigences stratégiques et besoins tactiques de l'action révolutionnaire.

Mots clés : Révolution Algérienne, structure territoriale, Willaya Trois, histoire condensée, géographie mouvante.

مقدمة

كانت الثورة الجزائرية (1954-1962) ترمي الى أن تُحِلّ مكان النظام الكولونيالي نظاما جديدا، وتَضعَ أمام بُناه بُنى الدولة الوطنية القادمة. لذا عملت وسعها لتكون حاضرة في كل قرية، وكل مدينة وكل مكان، وهو ما عكسته هيكلتها الاقليمية التي شملت مجمل البلاد مقسمةً إياها الى ستّة أقاليم عُرف كل واحد منها بالولاية.

ويعتقد الكثيرون أن تلك الأقاليم (أو الولايات) مجرد مساحات جغرافية محددة تؤطرها هياكل الثورة. إلا أنها في الواقع أكثر من ذلك، فهي أيضا «تكثيف تاريخي»، إذ أن أي قطعة جغرافية ما هي -في المحصلة- سوى تاريخ توقف، تماما كما أن الوقائع التاريخية التي تجري عليها هي -في جانب منها- جغرافية متحركة، فهما وجهان لعملة واحدة. أضف الى ذلك أن الاقليم، أي إقليم، تقيم عليه مجموعة من الناس بوصفها نظاماً من العلاقات المتبادلة، الأمر الذي يعني أنه علاوة على ما سبق (أي كونه قطعة جغرافية وبالتالي تكثيفاً تاريخياً) هو كذلك تمثلٌ جماعي، وظاهرة ثقافية.

على ضوء هذه المنظورات المختلفة والمتشابكة، يسعى هذا المقال الى مقاربة البنية الاقليمية للولاية الثالثة[1] كأنموذج، وذلك قصد بناء صورة أكثر شمولا لحقيقة الثورة وأشدّ قربا من واقعها المركب. وهو ينطلق -في هذا المسعى- من الاستفهام التالي:

- على أي أساس جرى تشكيل الوحدات الإقليمية المؤلِفة لهذه البنية وضبط الحدود بينها؟ أو بصيغة أوضح؛ ما هو المحدد الرئيسي لهذه العملية: هل هو التجاوب مع المتطلبات الآنية للعمل الثوري؟ أم التناغم مع البنيان العميق للمجتمع المحلي؟ أم كلا الأمريْن معا؟

لحلحلة هكذا اشكالية لا يكفي الاقتصار على الزمن القصير، ولا حتى الابحار مع زمنية ذات نفس طويل، وإنما لا بدّ من حركة جيبية في اطار جدلية الزمنين. وذلك طبعا ضمن نطاق مكاني محدد هو الولاية الثالثة (التاريخية).

1- من التقليد الى الابتكار

تعد الولاية الثالثة احدى مخرجات التقسيم الاداري (الخريطة 1) الذي تبنته الثورة التحريرية الجزائرية 1954-1962، ونفترض أن هذا الأخير يستبطن منظورا اجتماعيا–ثقافيا تبلور على امتداد التاريخ الطويل للجزائر. وهو ما سنناقشه فيما يأتي من خلال تحليل أنموذج الولاية الثالثة.

1- تتوسط الولاية الثالثة شمال الجزائر، وهي تمتد على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط Wمن»زموري» شرق العاصمة (على بعد 20 كلم) إلى «سوق الإثنين» شرق «بجاية». وتحدها من جهة الشرق الولاية الثانية (الشمال القسنطيني) انطلاقا من «سوق الإثنين» على البحر إلى غاية «سطيف» مرورا بـ «خراطة». ويفصلها من ناحية الجنوب عن الولاية الأولى الطريق الوطني الرابط بين «برج بوعريريج» و»المسيلة» والذي يقطع منطقة الحضنة على طول سهل القصب. ولا تتوقف الولاية الثالثة عند «المسيلة» بل تمتد لتصل الى مدينة «بوسعادة» حيث تلتقي بالولاية السادسة (الصحراء). وانطلاقا من «بوسعادة» تأخذ حدودها في الصعود باتجاه الشمال الى غاية «زموري» على البحر بعد المرور بـ «عين الحجل» و»سيدي عيسى» و»البويرة» و»الأخضرية» و»الثنية» لترسم بذلك الحد الفاصل بينها وبين الولاية الرابعة.

وتعد هذه الولاية أصغر الولايات التاريخية من حيث المساحة، بيد أنها في المقابل تتمتع بموقع استراتيجي؛ فهي جدّ قريبة من عاصمة البلاد، وتعد ممرا اجباريا بين القطاع القسنطيني والقطاع الجزائري، ولها حدود مع جميع الولايات التاريخية بإستثناء الولاية الخامسة. كما تتسم بسطح في غاية التعقيد والوعورة؛ إذ تتوفر على العديد من السلاسل الجبلية... الأمر الذي يجعل منها أرضا مثالية لخوض حرب عصابات. هذا، وتتميز-من الناحية الديمغرافية- بكثافة هي الأعلى وطنيا، في مقابل حضور ضعيف للاستيطان الأوربي، علاوة على وجود تجانس ثقافي واجتماعي قوي بين مكوناتها السكانية. ولا يفوتنا التذكير بالحضور القوي والمبكر للإيديولوجية الوطنية في هذه المنطقة التي لعب مهاجروها بفرنسا دورا محوريا في صياغتها إبان فترة ما بين الحربين العالميتين.

وبدايةً، نشير الى أن البنية الاقليمية للولاية المعنية (الخارطة 2) تختلف عن كل التنظيمات الاقليمية والبنى الادارية التي أَطَرَت قبلها ذات الحيز الجغرافي. وللتوضيح أكثر، فإننا إذا عقدنا –على سبيل المثال- مقارنة بينها وبين التنظيم الاداري الاستعماري السابق عليها، نسجل أن الولاية الثالثة كوحدة ادارية ليس لها ما يقابلها في المنظومة الاقليمية الكولونيالية، كما أن مناطقها تختلف جذريا عن «دوائر» المستعمِر Ar-rondissements، ونواحيها لا تتوافق مطلقا مع ما يُدعى بـ«البلديات المختلطة»[2]، ونفس التقرير يسري على أقسامها وقسماتها. فهل يعني هذا أنها بنية مبتكرة؟

1-1- التقليد أولا:

بهذا الخصوص، لا بد أن نسجل بأن «سمة الابتكار» الملحوظة على التقطيع الاقليمي للولاية الثالثة لم تكن ملازمة له منذ الانطلاق. ففي نوفمبر1954، كانت المنطقة الثالثة (التي ستصبح ولاية ثالثة لاحقا) تضم سبع نواحٍ[3] هي: ناحية ذراع الميزان، ناحية تيزي-وزو، ناحية برج منايل، ناحية عزازقة، ناحية عين الحمام، وناحية البويرة، ناحية تيقزرت-مكودة- سيدي نعمان.

وهذه الهيكلة لم تكن -في الواقع- سوى نسخة طبق الاصل لدوائر «الولاية 4-5» أي «ولاية القبائل الكبرى» التابعة لحزب الشعب-حركة الانتصاروهي متأثرة –بشكل كبير- بالتقسيم الاداري الاستعماري[4].

2- للإطلاع على التقطيع الاداري لبلاد القبائل في العهد الاستعماري، ينظر:

-Tarik Bellahsene, La colonisation en Algérie : processus et procédures de création des centres de peuplement : institutions, intervenants et outils, les cas des centres en Kabylie du Djurdjura, thèse de doctorat, université Paris 8, 2006, p-p : 534-537.

-Département d'Alger, «Monographie de l'arrondissement de Tizi-Ouzou», octobre 1953, in Archives CAOM 915/88.

3- تذكر معظم المصادر أن عدد النواحي المؤلفة لمنطقة القبائل في أول نوفمبر1954 كان سبعا، إنظر:

-Amar Hamdani, Krim Belkacem lion du djebel, Ed. Bouchène, Alger, 1993, p,p. 122, 131.

-Yves Courière, La guerre d'Algérie : les fils de la Toussaint, éd Rahma, Alger, 1992, p. 352.

بينما يذكر علي زعموم في مذكراته أن عدد النواحي في أول نوفمبر1954 كان ستاً إنظر:

-Ali Zamoum, Tamurt Imazighen Mémoire dun survivant 1940-1962, ed Rahma, Alger, 1993, p.p. 157-158.

4- انظر:

-PRG, District d'Alger, P.V. d'audition du nommé Fernane Hanafi, Ben Mohammed, le 22 mars 1950, in Archives CAOM, 91 1F 205-206.

-PRG, District d'Alger, Implantation du PPA-MTLD dans le département d'Alger, 3 avril 1953, in Archives CAOM 91/ F525.

-PRG, District d'Alger, Structure du PPA-MTLD, 27 janvier 1953, in Archives CAOM 91/ F525.

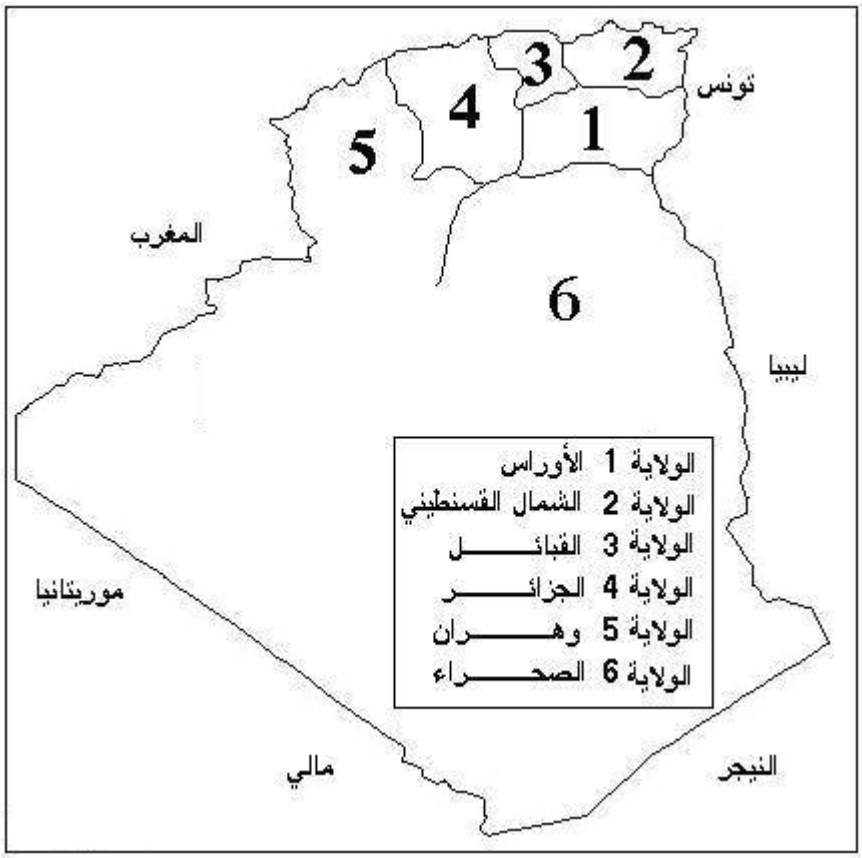

الخارطة رقم 1: التنظيم الاقليمي للجزائر أثناء الثورة التحريرية 1954-1962

الخارطة 2: التنظيم الاقليمي للولاية الثالثة (1956-1962)

المصدر: عبد الحفيظ أمقران الحسيني، مذكرات من مسيرة النضال والجهاد، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص 184.

1-2- الابتكارو»ديناميكية التوسع»:

بيد أنه سرعان ما أخذ التغيير يعتري هذه البنية الأولية، سيما وأن الولاية الحزبية المذكورة أعلاه كانت مقتصرة على القبائل الكبرى فقط، بينما «المنطقة الثالثة» كانت تشمل أيضا –على الأقل نظريا في هذه المرحلة- القبائل الصغرى ومناطق أخرى تقع خارج النطاق التقليدي لمنطقة القبائل. وفي فترة المخاض هذه، وقبل أن تأخذ الوحدة الاقليمية المعنية صيغتها النهائية في أعقاب مؤتمر الصومام (أوت 1956)، عرفت عدة صيغ وتقسيمات انتقالية[5]. وكان العامل الأبرز تأثيرا في ذلك المخاض هو ما يمكن أن نسميه بـ«ديناميكية التوسع»؛ حيث كانت الاقاليم التابعة لسلطة كل قائد تتحدد شيئا فشيئا تبعا لديناميكية المجموعات العاملة تحت إمرته أي مدى نجاحها في مدّ وإرساء نظام الثورة في قرى ودواوير جديدة. وكمثال على ذلك يمكن أن نشير الى ناحية البيبان التي كانت أثناء الثورة مقسمة بين منطقتين من مناطق الولاية الثالثة؛ فالجهة الشمالية (جعافرة، تفرق، ألماين، ثنية الخميس، المرابعة...) كانت تابعة للمنطقة الأولى بينما الجهة الجنوبية (أولاد سيدي ابراهيم وما جاورها، بني منصور، دوار بوقطن، موقة، تابوعنانت، مزيتة...) كانت ملحقة بالمنطقة الثانية. ومرد ذلك الى كون الفوج الذي مدّ تنظيم الثورة إلى الجهة الشمالية (أمثال: سعيد إيواسيف، حمو أوقابشون، أحسن أومالو، علي أوقلول...) كان قادما من بني عباس، في حين كان قد تولى ايصال الثورة الى الجهة الجنوبية فوج من بني مليكش (على غرار: الربيع مليكشي، أعمر ميرة...)[6].

غير أنه لا ينبغي المبالغة في أهمية هذا العامل؛ فهو وإن لعب –بكل تأكيد- دورا حاسما في زعزعة البنية الاقليمية القديمة، فإنه لم يكن له ذات التأثير في بلورة الهيكلة الجديدة. وتعد منطقة الصومام أحسن نموذج على ذلك؛ حيث تذكر المصادر المتاحة أن القائد

5 - انظر:

- شهادة سي الصادق دهيلس، في: عباس محمد، **فرسان الحرية**، دار هومة، الجزائر، 2001، ص: 92.

- FLN-ALN, « Extrait du P.V. du congrès de la Soummam », in Abdelhafid Amokrane, Mémoires de combat, Ed. Dar El Oumma, Alger, 1998.

6 - الجمعية الولائية لحماية وتخليد مآثر الثورة التحريرية، ولاية البرج بوعريرج، **حياة المجاهد الشهيد عيسى حميطوش «البنداوي»**، الملتقى التاريخي الأول لولاية البرج بوعريرج يومي 11 و12 جويلية 2005، ص ص: 31-32.

عميروش أيت حمودة[7] عندما قدم إليها في مارس 1955 قسمها عموديا الى منطقة«الصومام السفلى» التي امتدت من «إغزر أمقران» الى بجاية وكان على رأسها قاسي حماي، و»منطقة الصومام» العليا التي توسعت من «إغزر أمقران» الى «البويرة» ثم الى برج بوعريريج وقائدها عبد الرحمان ميرة. لكن عقب مؤتمر أوت 1956 أُعيد تقطيع المنطقة على محور أفقي متوافق مع مجرى وادي الصومام الى منطقة 1 على الضفة اليمنى للوادي ومنطقة 2 على ضفته اليسرى[8]. وهذا يعني أن هناك عوامل أخرى كان لها التأثير الأقوى في بلورة الصياغة النهائية للبنية الإقليمية للولاية الثالثة، فما هي؟

2- محددات الجغرافيا:

إذا أمعنا النظر في المثال الأخير، نكتشف أن القول الفصل في المسألة عاد لظاهرة طبيعية (وادي الصومام). وبالفعل، فقد ضُبطت في عديدٍ من الحالات الحدود بين المكونات الإقليمية المختلفة للولاية الثالثة بواسطة فواصل طبيعية كالسلاسل الجبلية (انظر الخارطة 3) والمجاري المائية (انظر الخارطة 4).

7- هو ابن عميروش أيت حمودة وفاطمة آيت منداس، ولد في 31 اكتوبر 1926 بقرية «تاسافت اوقمون» بعرش آث واسيف، بلدية جرجرة المختلطة (التابعة لولاية تيزي-وزو حاليا)، وهذا أربعة أشهر بعد وفاة والده. ونشأ عميروش في كنف أخواله بقرية «إيغيل بوماس»، والتحق بالمدرسة الأهلية بذات القرية في 1932. وفي سن الثانية عشر، أخذه عمه بلعيد ايت حمودة للعيش معه بـواد الفضة (التابعة لولاية الشلف حاليا)، ثم بغيليزان. وتزوج عميروش من ابنة عمه بلعيد، ورُزق منها بولد واحد.وانخرط في حزب الشعب-حركة الانتصار، وفي 1948 جرى تجنيده في المنظمة الخاصة، وأضحى مسؤول فرعها بغليزان، وألقي عليه القبض في أعقاب اكتشاف أمر المنظمة في 1950، لكن لم يلبث أن أطلق سراحه أمام انكاره لأي علاقة له بالمنظمة المعنية. وبسبب مضايقات الشرطة انتقل الى مدينة الجزائر ثم هاجر في أواخر 1950 أو مطلع 1951 الى فرنسا، واستقر في باريس، حيث تقلب في عدة مهن، كما انخرط في فرع جمعية العلماء في حي سان دوني التي كان يديرها الشاعر ربيع بوشامة.

وبعد اندلاع الثورة بأسبوعين عاد عميروش الى ارض الوطن (وحسب بعض الروايات الأخرى يكون قد عاد في سبتمبر 1954)، والتحق بالعمل المسلح تحت قيادة أعمر آث الشيخ مسؤول ناحية عين الحمام (ميشلي سابقا). وفي ربيع 1955، أُرسل الى منطقة وادي الصومام لإعطاء دفع قوي للثورة بها، وهو ما نجح في تحقيقه بدليل احتضان المنطقة للمؤتمر المعروف بإسمها في اوت 1956. وفي هذا المؤتمر تمت ترقيته الى رتبة صاغ أول (رائد)، وتعيينه كنائب عسكري لقائد الولاية الثالثة محمدي السعيد. وفي نفس الوقت، أرسل من قبل قيادة الثورة الى الأوراس لإعادة تنظيم الولاية الأولى وتسوية الخلافات التي ظهرت بين قادتها بعد استشهاد قائدها الأول مصطفى بن بولعيد. وبعد استدعاء محمدي الى تونس في صائفة 1957، حل مكانه عميروش كقائد للولاية الثالثة. وعمل هذا الأخير على اعطاء نفس جديد لولايته. هذا الى جانب سعيه الحثيث الى اقامة تنسيق وثيق بين قادة الداخل كما يعكس ذلك وقوفه وراء انعقاد اجتماع قادة الداخل في ديسمبر 1958. وفي 29 مارس 1959 سقط العقيد عميروش شهيدا رفقة العقيد سي الحواس قائد الولاية السادسة بجبل تامر بالقرب من بوسعادة، وكانا في طريقهما الى تونس.

8- انظر:

- عبد العزيز وعلي، **أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير بالولاية الثالثة**، دار الجزائر للكتب، الجزائر، د.ت.، ص 376.
- جودي أتومي، **العقيد أعميروش بين الأسطورة و التاريخ: المسيرة الطويلة لأسد الصومام**، تر: موسى أشرشور، 2005، ص 26.

2-1- الكتل الجبلية:

فيما يخص الجبال لدينا مثال صارخ هو سلسلة جرجرة، فهي كما تُعد القاسم المشترك

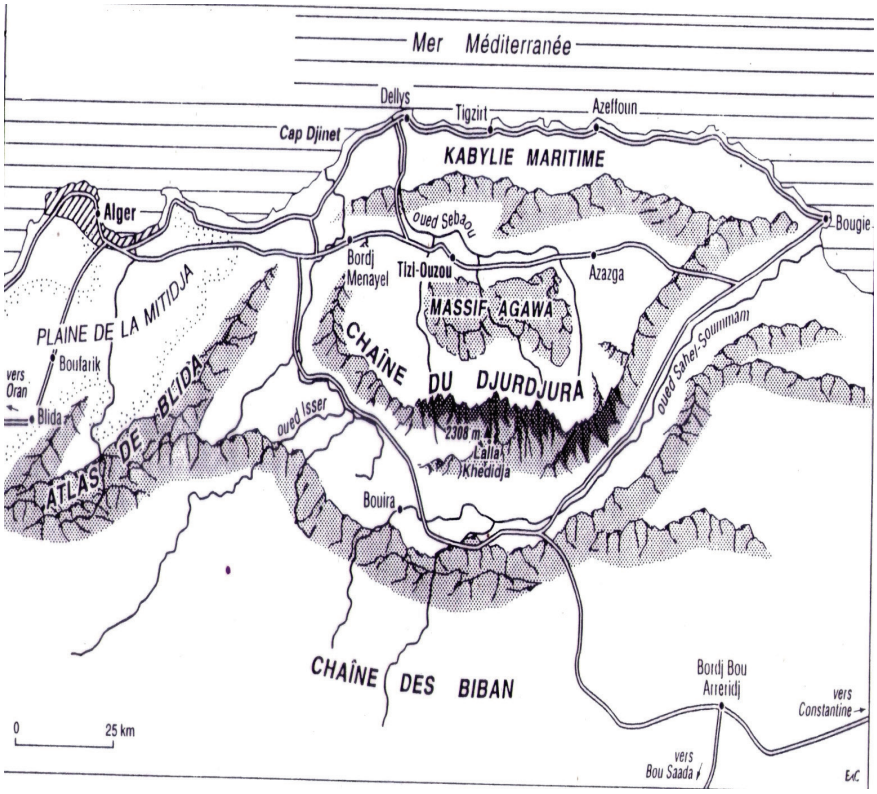

الخارطة 3: أبرز مظاهر التضاريس في الولاية الثالثة (منطقة القبائل)

المصدر:

Camille Lacoste-Dujardin, Opération l'oiseau bleu, La Découverte, Paris 1997, p 18.

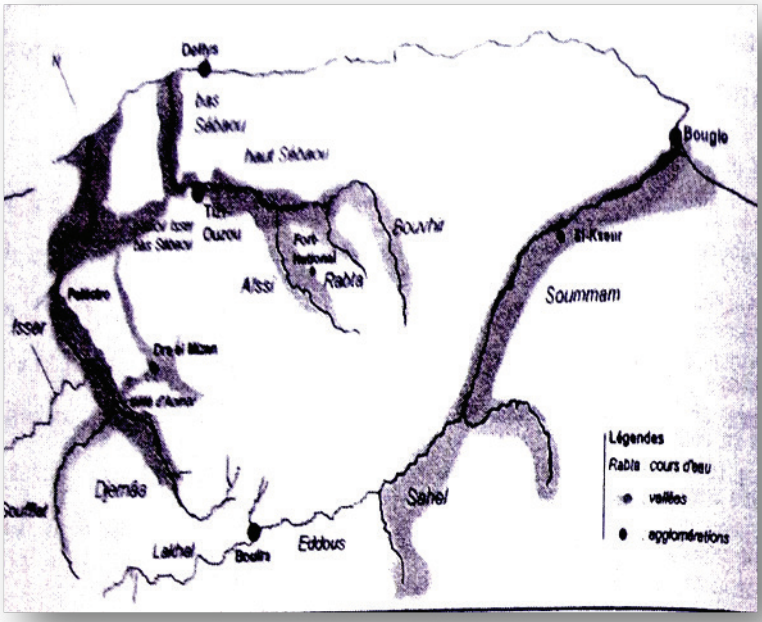

الخارطة 4: الأودية والمجاري المائية في الولاية الثالثة

المصدر:

Tarik Bellahsene, La colonisation en Algérie : processus et procédures de création des centres de peuplement : institutions, intervenants et outils, les cas des centres en Kabylie du Djurdjura, thèse de doctorat, université Paris 8, 2006, p 548.

الجبال في ضبط التقطيع الإقليمي على مستوى الولاية الثالثة أنه لا يتعين في رسم الحدود دائما وإنما يتمثل غالبا في لعب دور الجزء المحوري والمميزللوحدة الاقليمية المعنية بحيث تتبلور حوله لتشكل مجموعة مندمجة ومتجانسة طبيعيا وبشريا. والأمثلة في هذا المجال كثيرة، على غرار الناحية الأولى (لاربعا-ناث-إراثن) من المنطقة الثالثة التي تبلورت حول الكتلة الجبلية المركزية المعروفة بـ«كتلة زواوة»، والناحية الثالثة من ذات المنطقة (آث جناد-تقزرت) المتشكلة حول السلسلة الساحلية، والناحية الخامسة من

المنطقة الثانية (آث عباس) المتماهية مع كتلة البيبان الشرقية... ألخ. وفي مثل هذه الحالات، تتدخل دوما ظاهرة جغرافية أخرى على أطراف الوحدة الاقليمية لتضبط معالمها بصورة أدق، وهذه الظاهرة تتجسد غالبا في المجاري المائية.

2-2- المجاري المائية:

وحول دور هذه الأخيرة تتوفر معطيات جمّة، فعلاوة على وادي الصومام الفاصل بين المنطقتين الأولى والثانية كما مضت الاشارة، نصادف في المنطقة الأولى وادي بوسلام الذي يضبط الحدود بين العديد من نواحيها كالناحيتين الثالثة (آث عيذل) والخامسة (آث عباس) على سبيل المثال... وذلك بمعية عدة وديان أخرى كـ «وادي إلماين» و«وادي شرطيوة» و«وادي ماحاجار». وذات الشأن في المنطقة الثانية حيث يفصل وادي البارد بين الناحية الثانية (البويرة) والناحية الثالثة (مايو-أقبو) ووادي سمعون بين هذه الأخيرة والناحية الرابعة (بجاية). هذا شرق سلسلة جرجرة أما غربها، فأهم مجرى مائي على الاطلاق هو وادي سيباو وهو في ذات الحين أحد أبرز الفواصل الحدودية بين المنطقتين الثالثة والرابعة جزئيا وكذا بين نواحي المنطقة الثالثة. وتُعضّده في ذلك أودية وروافد أخرى عديدة نذكر منها: وادي بوبحيرووادي بركموش ووادي عيسي ووادي بوقدورة... دون أن ننسى وادي يسر الذي يفصل المنطقة الرابعة (الولاية الثالثة) عن الولاية الرابعة.

إلى هنا، قد يُفهم من هذا التحليل أن الشكل الطبيعي لسطح المنطقة هو من فرَض البنية الاقليمية للولاية الثالثة في غياب أي دور ايجابي للعنصر الانساني، فهل هذا صحيح؟ طبعا لا؛ لأن تأثير المحيط المكاني –دوما- مشروط بادراك الانسان له وكيفية تفاعله معه، وهو ما يمكن أن نتلمسه –هنا- من خلال مسألتين أساسيتين: المدلول التاريخي للظاهرات الطبيعية المذكورة أعلاه، والتكييف الاستراتيجي الذي خضعت له لتتجاوب مع الأهداف التي صُممت من أجلها البنية المعنية.

2-3- الجغرافيا كتاريخ مكثف:

بخصوص المسألة الأولى؛ إذا تأملنا في دور الظاهرات الطبيعية من جبال ومجاري مائية المطروق أعلاه، وهذه المرة من منظور تاريخي يأخذ بعين الحسبان «الأمد الطويل»، فإننا

سنخلص الى أن تلك الظاهرات لم تؤثر في البنية الاقليمية باعتبارها جزءاًمن الجغرافيا بقدر ما أثرت بوصفها تجسيدا لتاريخ بعيد الغور أي تعبيرا عن قوى ترسبت في أعماق المجتمع على مرّ القرون وما فتئت تؤثر في حركيته بشكل تلقائي.

فتقسيم الولاية الثالثة –مثلا- على أساس خط قمم جبال جرجرة الى المنطقتين 1 و2 الى الشرق منه والمنطقتين 3 و4 الى الغرب، ليس مجرد تقسيم جغرافي شكلي أملته ظاهرة طبيعية جامدة، إنما هو تجسيد لمسار تاريخي طويل الأمد طالما كرس الفروق بين قبائل شرقيةٍ وأخرى غربيةٍ. إذ ما فتئت أولاهما تولي وجهها شطر الشرق وتتمحور حول مدينة بجاية، وتعانق السهول العليا، بينما ظلت ثانيتهما ترنو ببصرها الى الغرب وتتفاعل أكثر مع مدينة الجزائر (بالأخص قبل نشأة مدينة تيزي-وزو)، وتلاصق سهول متيجة. وهو ما نجمت عنه تباينات لا تخطئها العين على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والتي كان لها دوما وقعها المتميز على الجانب السياسي. هذا علاوة على أن الاستعمار درج –لأزيد من قرن- على تكريس وتعميق الفروق المذكورة، وما مصطلحا: القبائل الصغرى والقبائل الكبرى الموروثيْن عنه إلا عنوانا لذلك.

وذات المنطق التاريخي يسري على استخدام الأودية في الضبط الاقليمي في كلا القطاعين المذكورين (أي القبائل الصغرى والقبائل الكبرى)، حيث أن توظيف وادي الصومام ووادي سيباو على التوالي في تقطيع كل من القبائل الصغرى والقبائل الكبرى الى منطقتين متمايزتين ما هو إلا تجسيد لتغاير تاريخي واجتماعي بين منطقتي «القرقور» (منطقة 1) والصومام (منطقة 2) بالنسبة لقطاع القبائل الصغرى، وبين منطقتي القبائل العليا (منطقة 3) والقبائل السهلية (منطقة 4) بالنسبة لقطاع القبائل الكبرى. كما أن هكذا استخدام للمجاري المائية (أي كفواصل اقليمية) يعكس تقليدا عريقا في المنطقة طالما ساعد على ضبط الحدود بين أراضي الأعراش المختلفة. وهو ما يميط اللثام عن التماهي الخفي بين البنية الاقليمية للولاية الثالثة والتنظيم التقليدي للمجتمع المحلي. ويظهر ذلك بشكل أكثر وضوحا على مستوى البنى القاعدية من أقسامٍ فما دونها، حيث نصادف حالات عديدة تتطابق فيها حدود الفرع أو القسمة مع حدود العرش.

وإذا قارنا بين النوعين المذكورين من الفواصل الاقليمية (أي الجبال والأودية) فإننا نسجل اختلافا مهمًا في درجة التغاير التاريخي والاجتماعي التي يعبر عنها كل منهما. فبينما تقف الجبال كحواجز طبيعية تحول دون التواصل الانساني بين جانبيها؛ فلا تسمح –مثلا- سلسلة جرجرة بالتنقل بين القبائل الكبرى والقبائل الصغرى سوى عبر عدد محدود من الممرات أهمها: ثيرروردة (1760 م)، ثيزي نكولان (1578 م)، أكفادو (1385 م) [9]والتي تخترقها مسالك غاية في الوعورة زيادة على عدم صلاحيتها للاستعمال طيلة شهور الشتاء[10]. فإنه توجد على جانبي أغلب المجاري المائية المذكورة مناطق عامرة يتصل بعضها ببعض وتتشابك مصالحها الاقتصادية وبالتالي فهي وسائل للربط والاتصال بدلا من الفصل. ومنه نخلص الى أن السلاسل الجبلية تجسد حدودًا فعلية أي حدود انفصال، بينما المجاري المائية هي حدود اتصال أي مجرد حدود رمزية تستعمل من أجل التسهيل الاداري (السياسي). وهنا تأكيد إضافي للترادف القائم بين الظواهر الجغرافية والمعطيات التاريخية-الاجتماعية، بحيث يصح القول بأن التسميات الجغرافية المختلفة التي تُستعمل بابتذال لتعيين الإقليم ككل من قبيل: جرجرة، بلاد القبائل... أو كجزء مثل: الصومام، قرقور، القبائل العليا، القبائل المنخفضة... إنما تعبر عن قوى تاريخية مترسبة في عمق المجتمع أو بلغة ابن خلدون تعبر عن «طبائع العمران وأحوال الاجتماعي البشري» المؤثرة في القوى الانسانية التي تتحرك في نطاقها.

إلا أنه وكما هو حال القواعد دائما، لهذه القاعدة أيضا استثناءاتها، وتعد توليفة المنطقة الرابعة مثالا جيدا على ذلك؛ حيث تضم الى جانب القبائلِ السهلية، السفوحَ الشمالية الغربية لجرجرة التي هي جزء أصيل من القبائل العليا. ومن نافلة القول أن هذا الاستثناء وغيره لا يشكل نفيا للقاعدة المعنية وإنما دعما لها، ويمثل في الوقت ذاته مؤشرا على وجود اعتبارات أخرى كامنة وراء تصميم البنية الإقليمية؛ اعتبارات تتصل -هذه المرة- بالأهداف الاستراتيجية لمصممها، الأمر الذي يستدرجنا الى معالجة المسألة الثانية.

9-Département d'Alger, «Monographie de l'arrondissement de Tizi-Ouzou», octobre 1953, in Archives CAOM 915/88.

3- متطلبات الاستراتجية

بخصوص هذه الأخيرة، من الجلي بمكان أنه عند تخطيط البنية الاقليمية للولاية، رُوعيت عدة عناصر استراتيجية على غرار الحصانة الطبيعية والكثافة السكانية ووفرة التموين ومواقع الاتصال، بحيث تكتسب كل وحدة إقليمية توازنها اعتمادا على وسائلها الخاصة... وهو ما يتجلى –على سبيل المثال لا الحصر- من خلال جمع أغلب الوحدات الاقليمية بين مناطق جبلية محرجة (مغطاة بالغابات أو الأحراش) وأخرى سهلية خصبة، ومراكز حضرية وتجمعات ريفية حتى يتوفر لها ما تحتاجه من حاجيات مادية وبشرية[11]، أي أنها قامت على مبدأ التكامل الاستراتيجي بين نوعين من النطاقات:- «نطاقات المقاومة والحماية» التي تكثر فيها الدفاعات الطبيعية كالجبال والغابات... وتشكل قواعد انطلاق وانكفاء مثالية لفصائل جيش التحرير.

- و»نطاقات العمل» التي يطغى عليها الطابع السهلي وتكثر فيها المراكز الحيوية وتخترقها محاور الاتصال... ومن ثمّ تعد مسارح مثالية للعمليات الهجومية ولاستخدام تكتيكات التخريب والاغتيال.

3-1- التكامل الاستراتيجي:

يكفي أن نمعن النظر ولو قليلا في مكونات المناطق الأربع المُؤلفة للولاية لندرك أنها تتجاوب -الى حد بعيد- مع المبدأ المذكور (أي التكامل الاستراتيجي). حيث نجد المنطقة الأولى تتركب من كتلتين جبليتيْن في الوسط هما: مرتفعات البابور وكتلة البيبان الشرقية ذات الكثافة السكانية العالية، الى جانب عدة مناطق سهلية على الأطراف أهمها الشريط السهلي الممتد على طول الضفة اليمنى لوادي الصومام في الشمال الغربي وحزام السهول العليا «السطايفية» الذي يطوقها في الجنوب وترصعه عدة مدن هامة كسطيف وبرج بوعريرج. ونفس الأمر يسري على المنطقة الثانية وإن كان بصورة مقلوبة؛ إذ تتركز على أطرافها سلسلتان جبليتان هما: السفوح الجنوبية-الشرقية لجرجرة التي تنتشر فيها مئات القرى العامرة في الشمال وكتلة البيبان الغربية في الجنوب وتتوسطهما سهول حوض الساحل-الصومام الممتدة بين أهم مدينتين بالمنطقة: البويرة وبجاية. أما المنطقة الثالثة فتتوفر على ثلاث كتل جبلية رئيسية في الجنوب والشرق والشمال، وهي على التوالي: كتلة زواوة وكتلة أكفادو والسلسلة الساحلية ويتوسطها حوض سيباو الذي يحتضن عاصمة القبائل الكبرى تيزي وزو، كما توجد العديد من المدن الصغيرة

11- محمد تقية، الثورة الجزائرية: المصدر الرمز المآل، تر. عبد السلام عزيزي، دار القصبة، الجزائر،ص 174.

والمتوسطة خاصة في الكتلة المركزية. وأخيرا المنطقة الرابعة التي يغلب على أجزاءها الشرقية الطابع الجبلي (كتلة سيدي علي بوناب، والسفوح الشمالية الغربية لجرجرة) بينما تضمّ أجزاؤها الغربية سهولا هي الأهم على مستوى الولاية الثالثة، هذا علاوةً على توفرها (أي المنطقة) على عدة مراكز حضرية هامة مثل ذراع الميزان وبوغني في الجهة الشرقية وبرج منايل ودلس في الجهة الغربية.

ومسايرةً لذات المنطق الاستراتيجي على الراجح، جرى تخصيص كل واحدة من المناطق الأربع المؤلفة للولاية بجزء من شريطها الساحلي (حوالي 300 كلم)، وذلك على الرغم من محدودية دور هذا الشريط في سياق حرب التحرير: فكان الجزء الممتد من سوق الاثنين الى مصب وادي الصومام من نصيب المنطقة الأولى، والجزء المحصور بين المصب المذكور وبني كسيلة من نصيب المنطقة الثانية، بينما حازت المنطقة الثالثة القسم الواقع بين بني كسيلة وضواحي دلس وألحق الجزء المتبقي والممتد من الموقع الأخير الى زموري بالمنطقة الرابعة[12].

3-2- تجاوز الحدود «الاثنولوجية»:

ومن أهم ما ترتب عن التكييف الاستراتيجي للمعطيات الطبيعية تجاوز الحدود «الاثنولوجية» والتقسيمات «الإثنو-لغوية»؛ فأدى -على سبيل المثال لا الحصر- مقتضى «الجمعُ الاستراتيجي» بين المناطق الجبلية ونظائرها السهلية في إطار إقليمي واحد الى دمج المناطق الناطقة بالامازيغية مع مثيلاتها المتحدثة بالعربية في بوتقة واحدة. الأمر الذي أضفى على مناطق الولاية الثالثة تنوعا لغويا وثقافيا واضحا يخالف الصورة النمطية الشائعة؛ إذ ضمت المنطقة الأولى سكانا ناطقين بالأمازيغية في مرتفعاتها الشمالية يمارسون على منحدراتها زراعة الأشجار المثمرة، الى جانب سكان يتحدثون بالعربية يقيمون في الجنوب على امتداد الحزام الذهبي حيث تنتشر حقول القمح (مزيان وشن، 2006: 15؛(Ben Salem, 1985 : 78) . وذات الأمر بالنسبة للمنطقة الثانية التي كان أكثر من نصف مساحتها معربا كنواحي «الحضنة» و»برج خريص» و»سور الغزلان»...، ولم تكن المنطقة الرابعة بدعا في هذا المجال، حيث تألفت هي الأخرى من نواح شرقية قبائلية اللسان (ذراع الميزان وجرجرة) وأخرى غربية ناطقة بالعربية (برج منايل ودلس...)، لتبقى المنطقة الثالثة هي الاستثناء الوحيد في هذا المضمار.

12- انظر الخارطتين رقم 2 و3 الواردتين في الملاحق.

وتماشيا مع هذا التمازج وتكريسا له جرى اللجوء الى استعمال الأرقام لتعيين الوحدات الاقليمية بدلا من أسماء الأماكن، وهذا قصد تلافي ما قد تحمله هذه الأخيرة من معان تمييزية على أساس اثني أولغوي أو قبلي...

خاتمة

بناء على العرض والتحليل اعلاه، نخلص الى ان تعيين الوحدات الاقليمية المؤلفة للولاية الثالثة، وضبط الحدود بينها، وتمييزها عن بعضها البعض بأرقام خاصة، لم ينبثق من العدم ولم ينشأ صدفة، وإنما كان تعبيرا عن حقائق تاريخية عميقة، وصدى لتقسيمات اجتماعية متجذرة، جرى تكريسها وترسيخها عبر نقلها من المستوى التاريخي-الاجتماعي العميق والمتخفي الى المستوى السياسي-الاداري البارز والمتجلي، وذلك –في الغالب- بعد تكييفها مع المتطلبات الاستراتيجية والمقتضيات التكتيكية للفعل الثوري. ولم يكن- بالطبع- القصد من ذلك لا تجزئة المنطقة ولا تمييز جهاتها، وإنما على العكس؛ تجميع كل مكوناتها في بوتقة واحدة، وتعميم حضور الثورة على مجمل ترابها.

وفي الأخير لنا أن نفترض بأن هذا المنطق المركب والعميق الذي ضبط عملية التقطيع الجغرافي للولاية الثالثة، هو ذاته الذي تحكم في بلورة الهيكليات الاقليمية وصياغة المنظومات الادارية للولايات التاريخية الخمس الأخرى. إلا أنه لا مناص من دراسات مماثلة لتأكيد هكذا فرضية أو نفيها.

- قائمة المصادروالمراجع:

1- المطبوعات:

- أتومي (جودي)، 2005، العقيد أعميروش بين الأسطورة و التاريخ: المسيرة الطويلة الأسد الصومام، تر: موسى أشرشور، الجزائر.
- أيت أحمد (حسين)، 2002، روح الأستقلال : مذكرات مكافح 42- 1952، تر: سعيد جعفر، منشورات البرزخ، الجزائر.
- بن معلم (حسين)، 2014، مذكرات اللواء حسين بن معلم، الجزء الأول: حرب التحرير الوطني، ترجمة أحمد بن محمد بكلي، دار القصبة للنشر، الجزائر.

- تقية (محمد)، 2010، الثورة الجزائرية : المصدر الرمز المآل، تر. عبد السلام عزيزي، دار القصبة، الجزائر.
- الجمعية الولائية لحماية وتخليد مآثر الثورة التحريرية، جويلية 2005، ولاية البرج بوعريرج، حياة المجاهد الشهيد عيسى حميطوش «البنداوي»، الملتقى التاريخي الأول لولاية البرج بوعريرج.
- دلس (عبد الله)، 2007، 2370 يوما في قلب اللهيب، مطبعة بلقصة- البويرة (الجزائر)، ط1.
- دهيلس سليمان المدعو سي الصادق (شهادة)، في: عباس محمد، 2001، فرسان الحرية، دار هومة، الجزائر.
- فرج (محمد الصغير)، 2007، تاريخ تيزي وزو منذ نشأتها حتى 1954، تر: زمولي موسى، دار ثالة، الجزائر.
- مصالي (الحاج)، 2006، مذكرات مصالي الحاج 1898-1938، ترجمة محمد المعراجي، موفم للنشر، الجزائر.
- وعلي (عبد العزيز)، 2011، أحداث ووقائع في تاريخ ثورة التحرير بالولاية الثالثة، دار الجزائر للكتب، الجزائر.
- وشن (مزيان)، 2006، اقليم برج بوعريريج عبر العصور، دار النشر جيتيلي، برج بوعريريج، الجزائر.

- Ait Ahmed Hocine, 1990, Mémoire d'un combattant: l'esprit d l'indépendance: 1942-
-Editions Bouchène, Alger -1952
-Bensalem (Djamel-Eddine), 1985, Voyer nos armes voyez nos medecins, ENAL, Alger.
- Bellahsene Tarik, 2006, La colonisation en Algérie : processus et procédures de création des centres de peuplement : institutions,intervenants et outils, les cas des cen tres en Kabylie du Djurdjura, thèse de doctorat, université Paris 8 (France).
- Courrière (Yves), 1992, La guerre d'Algérie : les fils de la Tousaint, éd Rahma, Alger.
- Djoudi Attoumi, 2005, Avoir 20 ans dans les maquis, Ed. RYMA Sidi-Aich (Algérie).
- Hamdani (Amar), 1993, Krim Belkacem lion du djebel, Ed. Bouchène, Alger.
- Jeanjean (Arnaud), juin 1997, la guerre d'Algérie en Kabylie 1954-1962, mémoire de mai trise en histoire, université de Nice-Sophia Antipolis.
- Mahé (Alain), 2001, Histoire de la Grande Kabylie 19-20 siècle Anthropologie

- Historique du lieu social dans les communautés villageoises, Ed Bouchène et éd Edif. 1ER édition, Alger.
- Mekacher (Salah), 2006, Aux P.C de la willaya III : 1957-1962, Ed. El Amel, Tizi-Ouzou (Algérie).
- Zamoum Ali, 1993, Tamurt Imazighen : Mémoire d'un survivant 1940- 1962, ed Rahma, Alger.

2- الأرشيف:

- Commune mixte d'Akbou, «Monographie politique Commune mixte d'Akbou», in Ar chives CAOM 93/ 4207- 4208.
- FLN-ALN, « Extrait du P.V. du congrès de la Soummam », in Abdelhafid Amokrane, 1998, Mémoires de combat, Ed. Dar El Oumma, Alger.
- PRG, District d'Alger, Implantation du PPA-MTLD dans le département d'Alger, 3 avril 1953, in Archives CAOM 91/ F525.
- Département d'Alger, «Monographie de l'arrondissement de Ti zi-Ouzou», octobre 1953, in Archives CAOM 915/88.
- PRG, District d'Alger, P.V. d'audition du nommé Fernane Hanafi, Ben Mohammed, le 22 mars 1950, in Archives CAOM, 91 1F 205-206.
-PRG, District d'Alger, Structure du PPA-MTLD, 27 janvier 1953, in Archives CAOM 91/ F525.
- Willaya 3, «Directives générales du 19 au 30 décembre 1957», in Archives SHAT, 1H 1248.
- Z.E.A. et D.I.A., «Synthése de renseignements concernant une partie des nahias de Fort national et de Michelet (W.3- Z.2- R.4 et R.5) FIN 1957», in Archives SHAT, 1H 3454, D2.